العصبية المذهبية: الجاهلية بلباس الدين

ينزل الدين خالصاً من عند الله، ويهدف الى تطهير المجتمع من كثير من الأفكار والمفاهيم والسلوكيات والأنماط، التي تتنافى وقيم الرحمة والعدالة والخير... وبعد اللتي واللتيا ينجح بشكل ما في إزالتها، او كبتها كلها او شيء منها؛ لكن الذي يحصل ولو بعد حين، ان بعضاً من تلك المفاهيم او الأنماط الثقافية ما تلبث ان تعود، بعد ان خبت لبرهة من الزمن، والسبب أنه لم يعمل على كنسها بالكامل من النفوس. امكن للدين ان يحاصرها، ان يكبتها، -كثقافة اجتماعية عامة- لكنها بقيت كامنة في النفوس او بعض منها، وعندما تجد ظرفاً مناسباً لها تعود، لكن هذه المرة بلباس الدين ولغته، لأن الثقافة العامة التي تخيم على المجتمع – هذه المرة- هي ثقافة دينية واللغة، المستخدمة دينية، كما الأدوات المفاهيمية المتداولة.

هذا هو بالضبط حال العصبية المذهبية في عالمنا الاسلامي اليوم، فالاسلام انتماء خالص لله تعالى قبل أي شيء آخر، ولذا كان من أهم أهدافه كنس العصبية الجاهلية، بما هي سنة ابليس وفعله، وبما هي تعالٍ موهوم، وبما هي دعوة تفاصل، وبما هي انتماء الى جاهليات مصطنعة، تعلي من شأنها، وتقدمه على اي اعتبار ديني وإلهي.

الجاهلية اليوم –كما بالامس- تلتف على الدين والاسلام. هي لم تنعدم، وانما بقيت كامنة في النفوس، تنتظر لحظتها، وتريد ان تختار لباسها الذي يمنحها مقبولية ما في البيئة التي تريد ان تسوق نفسها فيها، بل ومشروعيتها أيضاً.

هي اختارت اليوم لباس المذهبية، لأنه ينطق باسم الدين، ويتحدث لغة محمد(ص)، اللغة التي يألفها ويتأثر بها كثير من الناس، لكنها عصبية، بل هي عصبية جاهلية، انها دعوة الجاهلية بابشع صورها وأسوأ معانيها، لأن العصبية هذه المرة تستفيد من طاقة الدين وقدرته على التأثير والتحريض، الدين الذي ان احسن فهمه وتطبيقه فهو طاقة خيرة وبناءة، أيما خير وبناء، واذا أسيء فهمه وتطبيقه، فهو طاقة مدمرة وهدامة، أيما تدمير وتهديم، والشاهد في يومنا ليس بقليل.

ان ادنى مقارنة اليوم بين الخطاب المذهبي ذي المضمون الجاهلي، وبين ما جاء في كتاب الله تعالى، تظهر بوضوح الى اي مجال ينتمي هذا الخطاب، الذي يقدم اليوم باسم الدين والاسلام، وهذا البعض منها:

- القرآن الكريم ينهى عن التنازع، والخطاب المذهبي يدعو إليه.
- القرآن الكريم يتحدّث في الامة الواحدة، والخطاب المذهبي الأمم لديه هي بعدد المذاهب.
- يدعو القرآن الكريم الى عدم التفرقة، والخطاب المذهبي يدعو اليها.
- يجعل القرآن الكريم الاصلاح (السلام) اصلاً في العلاقة بين طوائف المؤمنين، والخطاب المذهبي يجعل الحرابة والصراع اصلاً.

- يدعو القرآن الكريم الى عدم التعالي، والخطاب المذهبي خطاب متعالي.
- يدعو القرآن الكريم الى عدم الاستكبار، والخطاب المذهبي خطاب عنصري.
- يدعو القرآن الكريم الى المشتركات (كلمة سواء)، والخطاب المذهبي يلغي كل مشترك.
- المفاهيم القرآنية مفاهيم بناءة (الخير..)، والمفاهيم المذهبية ذات بعد هدام.
- يدعو القرآن الكريم الى الرحمة في العلاقات الداخلية وغيرها، والخطاب المذهبي يبني علاقته على الشدة والعنف..
- يدعو القرآن الكريم إلى التفاعل الحضاري والإنساني والاجتماعي...(لتعارفوا)، والخطاب المذهبي الممارس، خطاب انطوائي انغلاقي غير تواصلي، وغير قادر على التأسيس لأي تفاعل حضاري، أو تقدم علمي، أو تطور اجتماعي وما شابه.
- حتى على مستوى الشكل والعناوين للقرآن الكريم تسمياته "هو سماكم المسلمين" وللخطاب المذهبي تسمياته المختلفة...

الى غير ذلك من المفارقات.

ان الاستنتاج البسيط الذي يمكن التوصل اليه، هو ان الخطاب المذهبي الممار س اليوم هو خطاب ذو مضمون جاهلي وسمات جاهلية واضحة، يتوسل اللغة الدينية، ليروج لنفسه. ويستقطب بسطاء الناس، ويضلل الكثيرين، ولكن ادنى مقارنة بين مفاهيمه ومفرداته من جهة، وبين ما جاء في القرآن الكريم وسنة الرسول(ص) من جهة أخرى، يبين حجم المفارقات الكبير بينهما، ويظهر أنها محاولة تلطي باسم الإسلام، وانها محاولة جاهلية للتسلل الى المجتمعات الإسلامية باسم الدين -ولنعترف انها نجحت إلى حد ما في تضليل العديد من البسطاء وغيرهم والتغرير بهم- وهو ما يتطلب:

1- إعادة تظهير الدين والإسلام خالصاً من القيم والمفاهيم الجاهلية.
2- تجريد الخطاب المذهبي من أية مشروعية دينية او إسلامية مدعاة.
3- إجراء مقارنات بين مفردات الخطاب المذهبي، وبين المصادر الإسلامية الأساسية (قرآن، سنة).
4- إظهار حجم التناقض بين الإسلام والخطاب المذهبي.
5- تبيان المخاطر والأضرار التي سببها هذا الفكر والخطاب في التاريخ والحاضر.

وقبل أي شيء، المطلوب وضع إستراتيجية عامة وشاملة يتعاون فيها جميع المخلصين والواعين من الملتزمين بالقيم الدينية والإنسانية، حتى لا تعطى مواجهة هذا الخطر الداهم بالمجتمعات الإنسانية عامة والإسلامية بشكل خاص، بعداً مذهبياً أو طائفياً، يؤدي إلى مذهبتها وإفشالها.

ان المشروع الهادف الى إحياء العصبيات الجاهلية، وإرجاعنا إلى عصور الظلام والتخلف هو مشروع يستهدف المجتمع الإنساني بجميع أطيافه، والمجتمعات الإسلامية بوجه خاص، ولذا ينبغي ان يكون العلاج علاجاً شاملاً يتكاتف فيه الجميع، لأن نار العصبية إذا فشت أحرقت، فهي لا دين لها، ولا عقل، ولا قيم، فالعقل المذهبي ذي البعد الجاهلي، لم يفهم الدين بشكل صحيح فيحسن تطبيقه، ولا يعي الواقع فيحسن التعامل معه. كما ينبغي أن نحذر من توظيف هذه العصبية في أي خلاف سياسي أو غيره، لأنه يفسد أكثر مما يصلح، ويحرق أكثر مما يورق، حتى لا نكون كالساعي على الجار بالنار، لا جار أبقت، ولا ديّار حمت..